

الحلقة (١٥)

لا زلنا عند قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وتكلمنا عن بعض جزئيات هذه الآية الكريمة، وقلنا أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها هو وضع حملها عند جمهور العلماء، وهذا هو التخصيص الذي جاء في قول الله عز وجل: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

ووقفنا عند قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ قلنا التربص: التأني والتصبر عن النكاح، وترك الخروج عن مسكن النكاح، وذلك بألا تفارقه ليلاً، ولم يذكر الله عز وجل السكنى للمتوفى عنها في كتابه كما ذكرها في المطلقة بقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وليس في لفظ العدة في كتاب الله عز وجل ما يدل على الإحداد، وإنما قال ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ فبينت السنة جميع ذلك.

القرآن في الغالب كما هو معهود أنه لا يُعنى بذكر الجزئيات، إذ لو ذكر كل الجزئيات لما كان هناك فائدة فيه في أن يتمايز العلماء الراسخون في العلم في أن يفسروا هذا القرآن ويستخرجوا منه الأحكام، فإذا السنة وظيفتها أنها تفسر القرآن وتشرحه وتبينه، على حد قول الله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إذاً السنة تفسر القرآن وتفصله وتوضحه وتبينه، وقد تزيد السنة أحكاماً لم تأت بالقرآن.

(لا تنكح المرأة على خالتها أو عمتها) هذا تأسيس حكم جديد، إذاً السنة هي المفتاح للقرآن، لا يكفي أن يقول الإنسان أنه قرآني بمعنى أنه لا ينظر إلى الشق الثاني من الوحي، والوحيان كلاهما متعاضان متداخلان متشابكان، فلا يستطيع الإنسان أن يفسر القرآن دونما إلمام بالسنة أو إحاطة بها.

إذاً لاحظوا أن السكنى لم تذكر في الكتاب، أيضاً عدة الإحداد لم تذكر في الكتاب، وإنما السنة بينت ذلك كله، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم متواترة بأن التربص في الوفاة إنما هو بالإحداد وهو الامتناع من الزينة ولبس المصبوغ الجميل والطيب ونحوه، والآية تقول ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ يعني أربعة أشهر وعشر ليالٍ تتربص المتوفى عنها زوجها، لكن كيف ولا سيما أن ظروف الحياة غير مضمونة، فقد تحتاج المرأة إلى إسعافها، فالمجتمع واسع، وقد هي تسعف أحداً من زميلاتهما، فهذا كله موجود في السنة، كيف ذلك؟

عن أم عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب ولا تكتحل ولا تمس طيباً إلا إذا طهرت نبذة من قسط أو أظفار) رواه الشيخان يعني ما تدعو الحاجة إليه في الغالب.

﴿ فإذا المرأة لا يجوز لها شرعاً أن تحد على ميت - سواء كان أباً أو أخاً أو ولداً - إلا ثلاث أيام. وما فوق الثلاث فلا تحد إلا على زوجها ﴾ **أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** وذهب العلماء باحثون عن الحكمة من ضم العشر إلى الأربعة أشهر، فقالوا أنه خلال هذه المدة يتبين للمرأة من حيث أنها حامل أو غير حامل، وهو موجود في بطون الكتب، وابن القيم له حديث شائق جميل مستفيض في كتابه إعلام الموقعين لمن أراد الاستزادة.

﴿ وأجمع الناس على وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها إلا الحسن البصري فإنه قال ليس بواجب (وهو قول شاذ كما يقول ابن عطية).

﴿ وأجمع الناس أيضاً على أن من طلق زوجته طلاقاً يملك به رجعتها، ثم توفي قبل انقضاء العدة أن عليها عدة الوفاة، لأنها زوجته في الأصل فإذا تعدت عدة الوفاة.

❁ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾:

﴿ قوله: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾: خطاب لجميع الناس، والتلبس بهذا الحكم هو للحكام والأولياء.

﴿ قوله: ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾: يريد به التزوج فما دونه من التزين.

﴿ **بِالْمَعْرُوفِ** ﴾: أي بما أمر فيه الشرع من اختيار أعيان الأزواج وتقدير الصداق دون مباشرة العقد.

إذاً تحدثنا معاً عن آيات كثر عن الأسرة من حيث البداية ومن حيث المشكلات ومن حيث الطلاق ومن حيث الوفاة ومن حيث كل الأحكام المتعلقة بالأسرة داخل المجتمع الصغير.

فإذاً ستأتينا آيات لعلهن ثلاث وبهذا نكون بإذنه سبحانه نختتم العيش مع الأسرة، وننتقل إلى أحكام جديدة بإذنه سبحانه.

انظروا دقة التصوير الإسلامي والإعجاز التشريعي الإسلامي، فالرجل مات وترك امرأة سواء أكانت المرأة معها ولد أم لم تكن، إنما هو مات وترك زوجة، فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشراً، فهل هذه المرأة تمكث هكذا بالهم والغم؟! والموت حق ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ فبعد الإحداد إذا جاء يريد رجل أن يتزوج بهذه المرأة المتوفى عنها زوجها فما الحكم؟

❖ قول الله عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ آية ٢٣٥

مات الرجل وزوجته باقية موجودة، مكثت أربعة أشهر وعشرًا، خلال الأربعة أشهر وعشرًا هي موجودة في بيتها تزار من قبل أهلها، فهناك أشخاص مثلاً أرادوا أن يعلموها ويخبروها أن الحياة لن تتوقف بموت فلان، أن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، هذه سنة الله عز وجل كتبها على الأنفس كلها، ولا حظوا كل نفس ذائقة الموت من إنسان وحيوان، كلنا سنعود إلى الله عز وجل، فيأتي أحد الأشخاص معرضاً بهذه المتوفى عنها زوجها في حالة الإحداد ويريد الاقتران بها، أو يريد أن يسبق خاصة لو كانت صاحبة مال وفارعة الجمال، وبعض الناس فطن يستخدم الوسائل التقليدية يرسل إشارات على أنه يريد الاقتران بالمرأة فيرسل رسالة يريد الرد منها الخ.

❖ مفردات الآية:

﴿قوله تعالى: ﴿عَرَّضْتُمْ﴾: التعريض في الأصل: إمالة الكلام عن نهجه إلى جانب منه، واستعمل في أن تذكر شيئاً مقصوداً بالجملة بلفظه الحقيقي أو المجازي أو الكنائي وهو ضد التصريح وهو من غرض الشيء: كأنه يحوم به على الشيء ولا يظهره.

ونحن في كلامنا نقول (فلان يعرض بي) يعني يذكر عبارات هي على معنى: إياك أعني واسمعي يا جارة، وكما يقول المناطقة إحضار غائب بحاضر، ومن العبارات الشائعة (ضرب به غرض الحائط) أي جانبه.

﴿قوله تعالى: ﴿مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾: الخِطْبَةُ (بكسر الخاء) فعل الخاطب من كلامٍ وقصدٍ واستلطاف بفعل أو قول، يقال: خطبها، يخطبها، خطباً، خطبة، ورجل خطاب: كثير التصرف في الخطبة، والخطيب الخاطب، والخطبة (بضم الخاء): ما كان لها أول وآخر.

❖ يعني التفريق بين الخطبة والخطبة يكون في المصدر، أما الفعل سواء المضارع فهما يتفقان، أحسب أنهما من باب خطب يخطب خطباً مثل نصر ينصر نصراً، إذاً هما يتفقان في الفعل الماضي والمضارع ويختلفان في المصدر، فما يتعلق بأمر النكاح خطبة، وما يتعلق بالإلقاء فهو خطبة.

﴿(فائدة) ومن أمثالهم الشهيرة (فلان أخطب من سحبان وائل) هذا الخطيب الشهير الذي قيل أنه خطب ذات مرة في الكوفة مكث من بعد الظهر إلى قبيل المغرب لم يتلثم ولم يردد كلمة قالها من قبل ولم يتنحج ولم يتعتع وما إلى ذلك، هذا عزيز وهذا فضل الله يؤتیه من يشاء، الإنسان لو تحدث في الغالب يعتریه ما يعتریه.

﴿ قوله تعالى: ﴿أَوْ أَكُنْتُمُ﴾: معناه سترتم وأضرتم من الزوج بها بعد انقضاء عدتها والإكنان: الستر والإخفاء، والكَنّ هو الشيء الذي يحميك ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ والكَنّ هو الذي يستر، فالآية هنا ﴿أَوْ أَكُنْتُمُ﴾ أي سترتم وأضرتم في أنفسكم.

❖ الإعراب:

- ❏ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ الاستثناء هنا منقطع بمعنى لكن.
- ❏ قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ سرّاً: تعرب حالاً.